اصلاح القرية

التعاون وأثره فى الحياة

بقلم الدكتور يحيى احمد الجزايرلى

أصبح لفظ التعاون رمزا لوسيلة النجاة ، فهو حتى الحيوان كما هو درع الانسان هو عدة الحكومات المعمود على سلم الارتقاء ؛ كما هو طريق الشعوب للتغلب على الأزمات

ان الفكرة الانسانية لم تبلغ ماوصلت اليه من الرقى إلا بتعاون الثقافة العالمية وان تقدم الاختراعات لم يصل الى درجة التقدم المدهش الا بتعاون الافكار واشتراك المجهودات

ان اجتماع الجهود لدفع الشر أو جلب الخير ليس خاصة من خواص الانسان وحده ، بل يشاركه فى ذلك كثير من أنواع الحيوانات ، يتساوى فى ذلك صغارها وكبارها ، فان تضامن القوى الصغيرة فضلا عما فيه من حفظ النوع ؛ هو الوسيلة الى النجاح ، والتغلب على عوادى الحياة وشرورها ، وهو أيضاً سبيل الوصول الى أكبر نصيب من رغد العيش والطمأنينة فى الحياة

نجد التعاون بهذا المعنى عند النمل والنحل واليعوض ، وكثير من الحيوانات ذات الثدى كالوعول والغزلة والقردة ، مما يطول استقصاؤه ومن أراد التوسع فليرجع الى ما كتبه أفاضل علماء الاجتماع مثل (سبنا) فى كتابه « جمعيات الحيوان » وفرل فى كتابه « جمعيات النحل » ولويس فيجيه فى ما كتبه عن الحشرات .

جماعة النمل تعيش متضامنة ، موزعة العمل فيما بينها ، وكل فرد يعيش لحياة المجموع وسعادته أيضا ؛ وقد وصف الاستاذ لويس فيجيه « حياة النمل العامل ودنا فيه عبرة وعظة نجتزىء منه مايأتى :

« يعرف النمل العامل باجتهاده ونشاطه وسهره على صالح الجماعة وحمايته لها ؛ فهو يسهر على تربية صغار النمل ، واليه يرجع القول الفصل فى إعلان الحرب وعقد الصلح مع القبائل الأخرى التى من نوعه ، والنمل العامل يسهر على مصلحة الجماعة وحراستها ، وترى الفريق العامل حينما يشعر بخطر يحمل على أكتافه الصغار والمارضى والعجزة والقواعد وكذلك

مايدخره جميعا ، واذا عجزت إحدى النمل عن المشى حملتها رفيقتها على ظهرها ، وكذلك تتقدم لمساعدتها اذا جرحت أول مارأتها حتى تصل الى مكان حريز للعناية بها

إن تضامن جماعة صغار الحيوان فى الحياة ، يقدم لنا دليلا محسوسا على دحض نظرية القائلين إن الحياة للأقوى الذى ينفرد بالبقاء والسلطان ، وإن الضعيف محكوم عليه بالفناء ، فالتعاون بين صغار الجماعات من الحيوان وغيره ، والاتحاد والتضامن بينها أبذل من ضعفها قوة ، حتى صارت قادرة على مقاومة صروف الحياة والقوى المحيطة بها ، والاحتفاظ بحياتها واستقلالها

وقد دلل البرنس كربانكين (أحد افراد الأسرة الملاكة فى الروسيا سابقا) بحكمته من مشاهداته فى سيبريا على أن الصحراء المخيفة والقفار الشاسعة لايمكن للحيوانات اجتيازها إلا جماعات ، فالذئاب والوعول ، والوحوش والطيور وغيرها تجتاز هذه الصحراوات جماعة متعاونة على مقابلة الخاطر والمخاوف ، نستنتج مما تقدم : أن عنصر التعاون فى الاتحاد والتضامن هو سر الفوز والنجاح فى الحياة

قال العلامة الفرد فوليه « أكبر قوة هادمة لعالم الأدبى والاجتماعى هى الأثرة (حب الذات) كما ان أكبر قوة للنظام والتقدم هى التضامن والتعاون »

أثر التعاون فى الماضى

إذا ماتقارنا الى الماضى ، وجدنا أثر التعاون فى جليل الاعمال ونهوض الأمة وتقدمها ، ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر الأمة المصرية الفرعونية ، وقد كانت من أعلى الامم كعبا فى العلوم والمعارف وأوسعها نطاقا فى الفتح ، وأعظمها عملا فى تخليد الآثار . . نرى أن التعاون كان وسيلة هذه الأمة العظيمة لرقيها وتخليد ذكرها ، وأنها عاشت أزمانا طويلة وهى موفورة الكرامة ، رافعة الرأس . مهيبة الجانب .

تركت لنا الآثار المصرية بعض أقوال السلف الصالح فى فضل التعاون وما أثره مما كان بعده الملوك مفخرة لهم ، وذكرا خالدا بعدهم ، فقد جاء فى أوراق البردى قول الملك رمسيس الثالث يصف أعماله وما قام به من الخدمات نحو شعبه قال : « كنت أعول الضعفاء والمساكين بواسطة حوانيت (شركات) التعاون ، وجعلت الرخاء يعم الناس جميعاً ، وكان الرخاء فى هذا الحين متهوك الحال ، وكانت الأرض فى عهدى ملأى بالخيرات من المزروعات وغيرها ، تحت حكمى عملت الخير ابتغاء وجه الله ومصلحة الأمة لا أريد على ذلك من أحد جزاء

ولا شكورا وفى هذا السبيل قضيت حكمى »

وقد جاء فى المجلد الخامس من مجلة علم الآثار المصرية بقلم الاستاذ (رفينيو) تعليقا على مالقدماء المصريين من الفضل الأسمى والدرجة العليا فى الأدب والدين والعلم ، وحماية العمال والضعفاء وأنهم لم يصلوا الى ماوصلوا اليه الا بفضل تعاونهم وتضامنهم : « لم يوجد شعب فهم معنى التضامن وتبادل المعونة فهما صحيحا كما فهمه الشعب المصرى ، فاذا كان الكلدانيون نظموا الجمعيات التجارية الحرة ، فان الكهنة المصريين هم أول من وضع أساس الجماعات الحرة الصناعية التى تحمى الفرد حماية فعلية : ولم يكن نظام الجماعات قاسيا كنظام الطبقات فى الهند فان العامل المصرى يمكنه أن يتزوج من غير طبقته ويدخل فى حرفة أخرى غير حرفته نظير أن يترك ماورثه عن أبيه ».

أثر التعاون فى الحاضر

شعرت الامم الغربية الآخذة بأسباب النهوض أن من أكبر المسائل فى تقدمها الاجتماعى والاقتصادى هو تأليف الجماعات واشتراك رؤوس الأموال للفوز بالكسب والرفاهية

وقد ظهر التعاون بمعناه الاقتصادى الحالى نتيجة للازمات الاقتصادية التى انتابت أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وأيضا على أثر ظهور اختراع آلات النسيج التى تدار بالبخار ، وكان للتعاون دعاة يؤمنون به إيمانا صادقا ، ويضحون فى سبيل دعوته بكل مرتخص وغال من نفس ومال أمثال الدكتور وليم كنج ، وروبرت أوين فى انجلترا وفوريه فى فرنسا ، وشلس ديلش وريفيزن فى المانيا ، والسير هوراس بلنكت فى إرلندا

والتعاون هو مجهودات الأفراد المشتركة وما يملكونه من وسائل مادية وأدبية وترتيبها للوصول الى أكبر حظ ممكن من الراحة والسعادة للافراد الذين اشتركوا فيه بمجهوداتهم وما يملكونه من وسائل .

قال أحد أساطين النهضة التعاونية فى انجلترا جورج هولبوك : إن التعاون قوة جديدة الصناعة شعارها الاخاء وغايته الاقتصاد ومبدأه العدالة »

الدكتور يحيى احمد الدردرى